مدارس الزَّوْراء في عهد الخلفاء

لحضرة مكاتبنا الفاضل الاب انستاس الكرملي البغدادي (تتمَّة)

١٢ً المدرسة النظاميَّة

سُمِّيت النظاميَّة وهي امُّ مدارس العراق. الطائرة الشهرة في الآفاق. باسم مؤسسها نظام الملك الوزير الخطير. والعلَّامة الكبير. وحليف العلماء المنقطع النظير. وهو الذي وُزِّر لاثنين من السلاطين السلجوقية. اصحاب الاعمال الخيريَّة. لا بل واهل العز والجاه. وهما ألب ارسلان وملكشاه. وكان نظام الملك من اخص واخلص الاصدقاء للادباء الأعلام. ولاسيما كان صديق الشاعر الفلكي عُمر الخيام

شيَّد نظام الملك دعائم المدرسة ونظَّم رحابها. سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥م) ومن بعد سنتين من تأسيسها فتحت لطلبة العلم ابوابها. وكان الغرض من انشائها النفعيّ. تعليم المذهب الشافعي

وقد ذكر ياقوت واحمد بن ابي طاهر البغدادي والخطيب البغدادي والسمعاني والعماد الكاتب وابن الدبيثي الواسطي وابن القطيعي والذهبيّ وابن النجار البغدادي وتقي الدين محمد بن رافع وابو بكر المارستاني وابن الساعاتي البغدادي وابن الفُرات وغيرهم اسماء مشاهير مدرسيها ومعلميها شيئاً كثيرًا. وعددًا وفيرًا. ومن نُبهاء مقرّنيها الغزّالي العلَّامة. والبحر الحبر الفهامة. وشهرتهُ مع حسن سمتهِ. تُغني عن ذكر ترجمته. ومنهم ايضاً بهاء الدين بن شدَّاد وهو ابو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد بن عتاب الاسدي قاضي حلب الفقيه الشافعي الذي نشأ عند اخوالهِ بني شدَّاد فنُسب اليهم. كان وُلد بالموصل الحدباء. ثم انحدر في بغداد الزوراء. واقام فيها سعيدًا في النظامية نحو ٤ سنين ثم عاد الى مسقط رأسهِ. وهو الذي كتب سيرة صلاح الدين الايوبي التي تُرجمت الى اللغات الافرنجيَّة

وبجوار هذه المدرسة كانت المدرسة البهائيَّة التي مرَّ ذكرها. والبيمارستان التُتُشيّ والسوق التُتُشي. وهذان الاخيران من ابناء خمارتكين تاج الدولة تُتش احد ابناء السلطان الب ارسلان السلجوقي الذي توفي سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤م)

وفي عهد ياقوت الحموي يعني بعد ان مضى على بناء هذه المدرسة مائة سنة كانت مبانيها ماثلةً في حالة حسنة . واذا انعمنا النظر في ما سطَّره ياقوت من الفوائد الجزية المبثوثة في عدة موادَّ من تآليفه يظهر جليًّا انها كانت واقعةً بين باب الأزَج وشاطئ دجلة . اي انهـا لم تكن بعيدة عن البصلية وهي محلة في طرف بغداد الجنوبيّ ومن الجانب الشرقيّ متصلة بباب كلوَاذَى المعروف اليوم بالباب الشرقيّ . كما انها كانت واقعة على الطريق المؤدية من باب الدَرَج في السور المحيط بقصور الخلفاء الى باب البصلية

هذا وابن جُبير الشهير حضر الصلاة في النظامية في الجمعة الاولى من بعد قدومه الى بغداد وذلك سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥م) وقد وصف المدرسة وصف بنـاء جليل يزهو ضياؤها ويفوق بكثير سائر المدارس القديمة التي تزّين تلك المدينة الزاهرة وكان عددها ثلاثين في شرقي بغداد فقط

وفي سنة ٥٠٤ هـ (١١١٠م) يعني بعد بضع سنوات من وفاة نظام الملك أُصلحت هذه المدرسة بالتمام . ويذكر ابن جُبير ان في أيامه كانت المداخيل الواردة من الاملاك والاوقاف الراجعة الى هذه المدرسـة تكفي كل الكفاية لجراية المعلمين والمدرسين وحفظ المباني في حالة حسنة بدون ان يخصص مبلغ خارق للعادة لإطعام فقراء الطلبة

امَّا سوق النظامية فكان احدى الطرق العامَّة التي تمرّ بتلك المحلة وقـد وصفهُ الواصفون بكونهِ واقعاً بجوار مشرعة سوق المدرسة النظامية . قال ياقوت في معجمهِ في مادة قُرَيَّة : « هي محلة كبيرة جدًّا كالمدينة من الجانب الغربي من بغداد مقابل مَشرعة سوق المدرسة النظامية » . اه . وهذا كلام يُشعر بان المدرسة كانت ماثلة قريباً من ضفَّة دجلـة

ولما زار ابن بطوطة بغداد سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧م) كانت النظامية شاخصة احسن الشخوص وقد وصفها بانها واقعة في وسط سوق الثلاثاء في شرقي بغداد في الطرف الاعلى بالنسبة الى الطرف الذي كانت تقوم فيهِ المدرسة المستنصريَّة (راجع نقل كلامهِ بحرفهِ في ما اثبتناهُ في المستنصريَّة) وهذا الشارع الطويل اي شارع سوق الثلاثاء كان يتموَّج ويتمعَّج ويتحوَّى ويتلوَّى كأنهُ الحيَّة ويحيط باسوار قصور الخلفاء ممتدًّا من باب كلواذى في الجنوب (باب الشرقي اليوم) الى باب السلطان في الشمال الغربي حيث كان يقـوم سوق الثلاثاء في اصل منشاهِ ومبدإهِ كما كان موجودًا في عهد ابن سَرَافيون

وبعد زيارة ابن بطوطة باثنتي عشرة سنة كتب حمدُ الله المؤرخ الفارسي عن النظامية وهو لا يُشير اليها الّا من طرف خفي ويلقّبها « بأُم المدارس في بغداد » وهذا يدلُّ على ان دوَين نصف المائة الرابعة عشرة بعد المسيح كانت المدرسة ماثلة وان كانت الآن قد عَفَت آثارها واندرست كما يتّضح ذلك منذ نصف المائة الثامنة عشرة بما ان بِنيُهر لم يجد في زمانهِ آثارًا للنظامية ليصفها كما وصف سائر الآثار الباقية في دار الخلفاء. امّا اليوم فالمتواتر بين البغداديين ان بقايا النظامية هو ما يرى من البيوت المرصوصة المتراكمة في « دَرب المنارة المقطومة » (اي المقطوعة) وهو الدَرب الذي يسميهِ البعض الآخر « بدرب محمود ابو الخسّ » (اي بائع الخس) في محلة باب الآغا ». وانما سُمّي بدرب المنارة المقطومة لان هناك قاعدة منارة اي مئذنة او بعض مئذنة ماثلة عند عِرقٍ حائطٍ قد برز منها ما يقرب من ثلثيها اي ما يساوي مترين و ٧٩ سنتمترًا من محيطها والباقي منهـا داخل في الحائط الذي يستند اليها . والشاخص منها سمكًا اولًا تسعة سافات بارزة فوق سطح الارض وعلوّ كلّ عَرَقٍ تسعة سنتيمترات ونصف وفوق هذه الدامياك الموضوعة على عرض الآجرّة سافٌ آخر على طول الآجرّة (اي ٢١ سنتيمترًا تقريبًا) بارز عن موازاة الصفوف الاولى مـا يناهز ١٢ سنتيمترًا في الاصل . الّا ان ضيق الطريق هنا ومعظم عرضهِ ٣ امتـار قد اوجب الناس ان يتحككوا بهذا الافريز اذا تجمّعوا حتى ان البارز منهُ المتّجه نحو معبر الطريق قد تساوى نتوّهُ مع بقية الصفوف السفلى . واما في الجانب الواحد فقـد بقي تقريبًا على اصلهِ . وهذا البروز او النتوّ هو بمنزلة نطاق بيّن يُحيط الدامياك السفلى ويشرف عليهـا . وفوقَ هذا العرق النطاقيّ ٤٥ سافًا أُخرى . يعلوها نوع من القبّة هي لها كالكتّة يُختم بهـا البناء وعدّة سافات هذه الكتّة سبعـة . وبالجملة فسمك المئذنة او المنارة او العلَم الموجود اليوم والبيّنة فوق الارض خمسة امتار وثمانون سنتيمترًا (انظر الصورة)

والمئذنة ماثلة عن خطّ السمت ٢٠ سنتيمترًا وهي واقعة الآن بين دار حِنقيل حاخام يعقوب لمن يأتي من جهـة جامع مرجان وبين دار اسحاق بن حِنقيل عزرا من الجهة الثانية وكلتا الدارين لليهود

لما عهد هذه المنارة فحديث بدون شك وبناؤها لا يتجاوز القرنين . والاسباب التي تدعونا الى هذا القول كثيرة . منها :

١ً نوع الطاباق (وهو الطابوق بلسان اهل بغداد اي الآجرّ) فانهُ لا يشبه ابدًا الآجرّ الذي كان يستعملهُ الاقدمون في دولة العباسيين كما في منارة سوق الغزل والسنّ ونحوهما . ولا يشبهُ ايضاً آجرّ القرنين الذين تلوا العصر العباسي

٢ً وكذلك القول عن الجص الذي يجمع الطاباق بعضهُ الى بعض

٣ً راس المنارة المجموعة وقد قلنا انهُ يشبه القلنسوة او الكُتَّة مبني من جنس آجر المئذنة ومن جصّها وحجم آجرها وقطعهِ ولونهِ الخ . ولا يمكن ان تتصور انها بُنيت على هذه الصورة منذ عهد الخلفاء اذ لا شكل هندسي لها ويخالف لجميع اصول البناء . والّا فان كان بناء الكتّة حديث العهد بالنسبة الى المئذنة نفسها القديمة البناء فكيف لمكن للمحدثين ان يجيئوا بآجرّ وجص وشيد ومواد لا تفترق بشيء عن مواد المئذنة في عهدها الاول . وكيف ضارع البناء الجديد البناء القديم من جهة الاعراض الخارجية ومنظر الكل حديث جديد

٤ً ليس في بناء هذه المئذنة ما يحملنا على الظن انها من عهد الاقدمين حتى ولا طرز بنائها فانهُ من ابسط ما يكون وليس فيهِ ادنى عناية . ولا نظام لهُ ولا ترتيب سائر المآذن على ما نشاهدهُ في سائر ابنية الخلفاء او ما كان منها من بعد عهدهم بقليل . فلا جرم انها حديثة الوضع هناك وقد أُقيمت بمنزلة « بناء تذكاري » يذكّر اهل المدينة بموضع مركز النظامية سابقاً ولقد بذل البعض مبلغاً طائلاً ليحصلوا على اذنٍ او رخصة من الحكومة او البلدية يستطيعون بهِ ان يُعفُّوا هذا الاثر فلم تُجز لهم ذلك . ويا اسفاه اذا حصل هؤلاء مع الزمان على تحقيق امنيتهم فانهم بذلك يُزيلون اثر هذه المدرسة وذكرها . واذا تمّ ذلك لا يعود احدٌ يعرف شيئاً من محلها القديم . بما انهُ من الآن قد اضمحلّ كل اسم قديم كان معروفاً قبل قرنين او ثلاثة فكيف اذا زال آخر اثر منها فنتوسل الى الحكومة ان تتمسك بعدم تحقيق ما يتمنّى الطالبون حفظاً واكراماً لذكر الاقدمين

واما سوق الثلاثاء الذي يكثر ذكرهُ في تاريخ بغداد فهو مجهول اليوم بالكلّية مع انهُ كان لهُ ذكر مشهور في السابق وكان عظيماً جداً إذ كان يمتد من اول الباب الشمالي عند سور المدينة فيتزل الى سور قصور الخلفاء فيمرّ بسوق الرّيحانيين الى ان يتصل بصدر جامع القصر الكبير . اما اليوم فقد أُقيمت ابنية كثيرة متضامّة على هذا الدرب وسوقهِ

حتى تنكَّرت صورة المدينة الاولى. ولم يبقَ امكان للاهتداء الى اصل رسم ذلك السور ولا الى دربهِ ولا ولا ولا. والباقي منهُ يعرف بعدة اسماء بحسب موقعها او جوارها لبعض المعاهد والابنية او بموجب صاحبها وشاريها ومالكها من ذلك « محلة ثلاثة دكاكين . ودرب المنارة المقطومة . وباب الآغا . الى غير ذلك

اما نظام الملك مؤسسها فقد قال عنهُ ابن خلكان ما ملخصهُ :

« وكان نظام الملك من نواحي طوس وكان من اولاد الدهاقين واشتغل بالحديث والفقه ثم اتصل بخدمة علي بن شاذان المتسلط عليهِ بمدينة بلخ وكان يكتب لهُ فكان يصادرهُ في كل سنة فهرب منهُ وقصد داود بن ميخائيل السلجوقي والد السلطان ألب ارسلان فظهر لهُ منهُ النصح والمحبة فأسندهُ الى ولده الب ارسلان وقال لهُ : اتخذهُ والدًا ولا تخالفهُ فيما يُشير بهِ . فلما مات الب ارسلان دبَّر امرهُ فأحسن التدبير وبقي في خدمتهِ عشر سنين فلما مات الب ارسلان وازدحم اولادهُ على الملك وطمَّد المملكة لولدهِ ملك شاه فصار الامر كلهُ لنظام الملك وليس للسلطان الا التخت والصيد . واقام على هذا عشرين سنة . . . وكان مجلسهُ عامرًا بالفقهاء والصوفية . . . وبنى المدارس والرُبُط والمساجد في البلاد وهو اول من انشأ المدارس فاقتدى بهِ الناس وشرع في عمارة مدرستهِ [النظامية] ببغداد سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٤ م) وفي سنة ٤٥٩ جمع الناس على طبقاتهم ليدرس بها الشيخ ابو اسحاق الشيرازي فلم يحضر فذكر الدرس ابو نصر بن الصباغ صاحب الشامل عشرين يومًا ثم جلس الشيخ ابو اسحاق بعد ذلك . . . ولهُ من الشعر قولهُ :

بعد الثمانين ليس قوَّه قد ذهبتْ شرَّة الصُبُوَّه
كأنني والعصا بكفّي موسى ولكن بلا نبوَّه » اه

وقد ذكرنا في صدر هذه المقالة سنة ولادتهِ ووفاتهِ

وممن يحق ذكرهُ هنا الشيخ ابو سعيد من شيوخ الصوفية وقد ذكرهُ الجامي في كتاب نفحات الانس فانهُ تولَّى دراسة المدرسة النظامية بعد أن عُني ببنائها (اطلب نجاني الادب ١ : ٨٧) . يعتبرهُ الصوفيون كل الاعتبار ويثنون عليهِ لورعهِ وآدابهِ . توفي نحو اواخر المائة الخامسة من الهجرة

مدارس النصارى

واما النصارى فكانوا مخيَّرين في ارسال اولادهم الى مدارس العرب او الى ارسالهم الى مكاتبهم . واوَّل من حظَّر عليهم تعليمهم في مدارس المسلمين الخليفة المتوكل قال في اخبار فطاركة المشرق من كتاب المجدل لماري بن سليمان (ص ٢٩)

ما هـذا نصُّهُ . . . وأمر [المتوكل] بان لا تعلَّم اولادهم (اي اولاد النصارى) في مكاتب العرَب » اه

وكان لهم عدة مدارس منها :

١ً مدرسة في الكَرخ

وهي التي نشأ فيها ابو محفوظ معروف بن الفَيْرزان المشهور بالمعروف الكَرخي نسبةً الى كرخ بغداد . كان اهلـهُ نصارى وأسلم . (راجع كتاب خلاصة الذهب المسبوك . مختصر من سير الملوك تأليف عبد الرحمان سنبط قنيتو الاربلي (ص ١٤٥ من طبعـة بيروت)

٢ً مدرسة أخرى في الكَرخ

قال ماري بن سليمان (ص ٧٦) « ولمَّا بنى المنصـور مدينتهُ (في الكرخ) ونزلها الناس هدم سبر يشوع (جاثليق النساطرة) تلك الابنية (أبنية مار قشيون) لاجل من تغلَّب عليها ولم يتعرَّض للهيكل والمذبح . وجدَّد بنـاء بيت الاشهاد والاروقة ونصب اسكولًا (مدرسةً) وجمع المتعلِّمين وكان عليّ وعيسى ابنـا داود يقومان بامرهم واقام الجاثليق فيـهِ ورسم ان يدفع من دخلهِ الى رهبان قُرْطَمِر وهو المعروف بمَر صليبا وهم الناقلة من هذا الدير اربعة دنانير في كل شهر » اه كلامهُ

٣ً اسكول مَرماي

هو مدرسة خرج منها اعظم مشاهير علماء النصارى ولم يكن في نفس بغداد بل كان قريبًا منها . واكابر البغاددة كانوا يرسلون اليـهِ اولادهم . قال ابن ابي اصيبعة في متَّى بن يونان (١ : ٢٣٥) « كان ابو بشر متَّى بن يونان من اهل دير قُنِّي ممَّن نشأ في اسكول مرماري اه . وقال ياقوت : « دير قُنَّى بضم اوَّلهِ وتشديد ثانيـهِ مقصور (١ ويعرف بدير مرماري السليح (٢ . قال الشابُشتيّ : وهو على ١٦ فرسخًا من بغـداد منحدرًا بين النعمانيَّة وهو في الجانب الشرقي ممدود في اعمال النهروان . » اه

---

١) والنصارى من العرب يضبطونهُ بضم القاف وكسر النون وفي الآخر ياء ساكنة ومنهم من يُفخم واوًا بين القاف والنون ويقول قُوني . ويزعمون ايضـا امرأة بنت هذا الدير وكنيستهُ من مالها الخاصّ واوقفتهُ للبيعة فسُمّي باسمها

٢) وفي الاصل : السليخ بخاء معجمة وهو غلط

وهناك عدة مدارس ومداريس واسكولات لا يمكن الحصول على اسمائها فقد كتب ماري بن سليمان (ص١١٢) عن الجاثليق يوانيس انهُ «تجوَّز باخذ الرشي على الاساميذات جهراً واخراب البيع وتعطيل الاسكولات (التي في بغداد) اه. وهذا كلام يستشف من ورائهِ انهُ كان في بغداد عدة مدارس او اسكولات كما انهُ كان فيها عدة بيع

وقال المذكور في (ص ٨٥) عن الجاثليق يوحنا بن عيسى انهُ «تربَّى في قطيعة النصارى ببغداد». وقطيعة النصارى هذه كانت قريبة من درب القراطيس وكان فيها ايضاً نصارى اذ قال بُعيد ذلك: «وتعصَّب على يوحنَّا قومٌ من قطيعة النصارى ودرب القراطيس كانوا يعرفون منشأهُ وتربِّيهِ بينهم» اه. ولما كان لا بُد لكل محلَّة من كنيسة ومدرسة كان من الواضح وجود مثل ذلك في تلك المحلة

هذا الذي تمكَّنت يدنا الى الوصول اليهِ من اسماء المدارس مع تأكُّدنا اننا لم نذكر الَّا شيئاً زهيداً منها ولهذا فان كان بين القرَّاء من يستطيع ان يهدينا الى غير ما ذكرناهُ فانهُ يستحق الأجر ونباهة الذكر والله المكافئ المُثيب. وكفى بهِ محسناً

نعيم الآخرة

مقالة لايليَّا مطران نصيبين

عُني بنشرها الاب لويس معلوف اليسوعي

تَوْطئة

في العشر الاوَّل من الشهر الحالي تحتفل الكنيسة بيد صعود الربّ الى السماء وهي تنتهز الفرصة لتوجه افكار ابنائها الى افراح الجنَّة فتوطِّد رجاءهم في الثواب الذي ينتظرهم في دار البقاء اذا ما جاهدوا مع الرسول الجهاد الطيِّب فغلبوا الشهوات وفعلوا الصالحات. وقد رأينا نحن ايضاً هذا الوقت موافقاً لنشر مقالة في نعيم الآخرة وذلك اثر قدوم وقفنا عليهِ في احد مخطوطات او كسفرد العربيَّة وهو لكاتب نسطوري شهير ايليَّا مطران نصيبين نشرنا لهُ سابقاً (في المشرق ٦: ١١١) رسالةً في وحدانيَّة الخالق وتثليث اقانيمهِ كنَّا اقتطفناها من المجموع ولا حاجة لوصف هذا المخطوط